الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

الإنذار الرحيم

عندما يصبح التّذكير بالموت رحمة إلهيّة

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

كان الأستاذ جلال يُعلّم التاريخ لأربعين عاماً، لكنه لم يتعلّم درساً واحداً عن الموت!

وفي صباح يومٍ ممطرٍ، بينما كان يُعدّ محاضرة عن "الفتوحات الإسلاميّة"، سمع نبأ وفاة صديقه أحمد بنوبة قلبية مفاجئة، ارتجّ كرسيه تحت صدمة الخبر، وكأنّ الموت دقّ بابه شخصياً...وفي تلك الليلة لم يستطع النّوم، وهو يفكّر في صديقه وموته، ويتردّد في خلده قول اللّٰه تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: 185)، وقطع حبل أفكاره وهواجسه رسالة أتته على جوّاله من رقم مجهول غير ظاهر، مكتوب فيها:

"عزيزي جلال، لديك ثلاثة أيام قبل لقائنا الأخير...."

ضحك ساخراً وهو يظنّها مزحة ثقيلة من أحد طلبته، لكنّ تلك الرسالة تبعتها رسالة أخرى:

"هذا ليس تهديداً... بل تذكير محبّ، فاستعدّ..."

شيء ما اهتزّ داخله؛ أهو قلبه؟ ضميره؟ لا يدري.....

لكنّه شعر أنّ الرسالة لم تكن مزحة، فبقي حائراً فيها وبمن أرسلها وما المقصود بها....

هكذا بدأت قصة الأستاذ جلال مع أعمق حقائق الوجود....

لكنْ ماذا لو لم تكن تلك الرسالة مجرّد خيال؟ ماذا لو كانت تذكيراً حقيقياً من اللّٰه؟ وماذا لو كان كلّ منّا يعيش أيامه الثلاثة الأخيرة دون أنْ يدري؟ وماذا لو كان كلّ منّا في لحظة ما ... الأستاذ جلال.....

ففي لحظة ما... في مكان ما... في زمن لا يعلمه إلاّ اللّٰه...

ستتوقّف السّاعة بالنسبة لنا....سنأخذ أنفاسنا الأخيرة في هذه الدّنيا، وستنبض قلوبنا آخر نبضة، وسننطق بآخر كلمة على هذه الأرض.....

وهذا ليس تخميناً أو احتمالاً... هذا يقين مطلق، حتميّة كونيّة لا تعرف الاستثناء.

إلاّ أنّ السؤال الذي يحيّر العقول ويقلق القلوب هو: متى؟

متى ستأتي تلك اللحظة؟ هل بعد دقائق؟ ساعات؟ أيام؟ سنوات؟ لا أحد يعلم...

قال اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: 34)، فاللّٰه وحده هو من يعلم متى ستكون نهايتك، وأين ستكون آخر أنفاسك...

لكنّ الأمر الأكثر إذهالاً هو أنّ هذه اللحظة عندما تأتي... لن نتأخّر ولن نتقدّم حتّى ثانية واحدة، إذ يقول اللّٰه سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: 34).

تخيّل دقّة هذا التوقيت الإلهيّ، الذي حمل موعداً محدّداً منذ الأزل، مكتوباً في اللوح المحفوظ، لا يتغيّر ولا يتبدّل.

والآن... تخيّل نفسك في تلك اللحظة الحاسمة...

هل ستقول:

"أخيراً... لقد وصل موعد اللقاء المنشود"؟

أم ستصرخ:

"لا... ليس الآن... أحتاج وقتاً أكثر"؟

هل ستشعر أنّ قلبك يرقص فرحاً باللقاء الذي طال انتظاره؟ أم سيغرق في بحر من الندم والأسف على الفرص الضائعة والأوقات الطويلة التي كان يجب استغلالها في إعادة ترتيب الأولويات، وتصحيح البوصلة التي تقودنا في هذه الحياة؟

فالموت، يا صديقي، هو أصدق امتحان لحقيقة إيماننا،ومن عرف حقيقته أدرك قيمة الحياة.....

فهو اللحظة التي تسقط فيها جميع الأقنعة، وتنهار كلّ الادعاءات، وتظهر حقيقة علاقتنا باللّٰه..

إنّه المرآة الصادقة التي تعكس ما كنّا عليه حقاًّ، وليس ما ادّعينا أنّنا عليه...

فمن عاش محباًّ للّٰه، مشتاقاً للقائه، عاملاً لآخرته، سيجد الموت بوابّة النور التي تفتح له على جنات النعيم، ومن عاش غافلاً عن ربه، مماطلاً ومؤجّلاً لتوبته، سيجده بداية رحلة النّدم الأبديّ...

فأيّ الفريقين تريد أنْ تكون؟

لك أنْ تتخيّل إنساناً مثالياًّ يعيش حياته وقلبه معلّق بلقاء ربه، كيف تكون أيامه؟ وكيف تكون أحواله؟

فهذا الإنسان المبارك يستيقظ كلّ فجر وهو يقول: "اللهمّ بلّغني هذا اليوم على خير، وإنْ كان آخر أيّامي فاجعلني ألقاك وأنت راضٍ عني غير غضبان"، ويعيش كلّ لحظة بوعي أنّ الموت قد يأتي في أيّ وقت، لكن بدلاً من الخوف، يملأ قلبه الشوق واللهفة للقاء الحبيب...

فهو في صلاته، يناجي ربّه بحبّ وخشوع: "اللهمّ إنّي أشتاق للقائك، فهيّئني لهذا اللقاء"، وفي تلاوته للقرآن، يستشعر أنّه يحفظ زاد الرحلة الأخيرة، وفي صدقته وبرّه، يستثمر في البنك الأخرويّ الذي لا يفلس أبداً...

فهذا المؤمن الحقّ يقول بصدق: "مرحباً بالموت"، ليس استهتاراً بالحياة، بل شوق لما هو أجمل وأبقى، فهو يعلم أنّ اللّٰه سيثبّته عند السؤال، وأنّ لسانه سينطق - بإذن اللّٰه - بالشهادتين في اللحظة الأخيرة، وأنّ الملائكة ستبشّره بالجنة....

فلنتأمّل سوياًّ مقارنة بين رحلتين...

الرحلة الأولى هي رحلة معتادة تخطّط لها في الدنيا - ربّما رحلة حجّ أو عمرة أو سفر لبلد جميل، فتستعدّ لها أسابيع أو شهوراً، تحضّر الملابس المناسبة، تحجز الفنادق، تتعلّم عن المكان، تحضر الأموال اللازمة، تودّع الأهل والأحباب، كلّ هذا الاستعداد لرحلة قد تستمر أياماً أو أسابيع.

والرحلة الثانية هي رحلة الحياة كلّها وصولاً إلى الموت ثمّ الآخرة، رحلة أبدية لا تنتهي أبداً، وجب أنْ نستعدّ لها ونحمل حقائبها، فحقيبة الأمان، حقيبة رضى الرحمن، التي ستحمل تخلّينا عن كلّ ما يسخط

أرواحنا، وحقيبة الزاد، بما فيها من صالح الأعمال، وحقيبة الخريطة وبوصلتها نور البصيرة، ومتاعها محاسبة النّفس، وحقيبةُ التذكرة، وجوازها التوحيد، وتجديدها "لا إله إلا اللّٰه" كتذكرةٍ لا تنفد صلاحيتها!

ولو تفحّصنا زاد الرحلة الأولى لوجدناه من الأثاث والملابس والطعام والشراب والأموال والأولاد، وكلّها أشياء ماديّة مؤقّتة تنتهي صلاحيّتها، أمّا زاد الرحلة الثانية فهو الإيمان والتّقوى والعمل الصالح والذّكر والاستغفار وحسن الخلق واستثمار الوقت في الأعمال الصالحة، وهو زاد روحيّ باقٍ لا يفسد ولا ينتهي.

فأيّ الرحلتين تريد الالتحاق بها؟

والآنْ... دعنا نمضي معك في تلك الساعات التي قد تأتي في أيّ لحظة، لكنْ هذه المرة فلنرها بعين الرحمة الإلهيّة والتّذكير المحبّ، لا بعين الترهيب المدمّر...

تخيّل للحظة أنّ ملك الموت يأتيك برسالة من اللّٰه:

"لديك ثلاثة أيام لتستعدّ للقائي"....

هذه ليست لعنة، بل هي رحمة عظيمة لا يحصل عليها كلّ أحد...

ففي اللحظات الأولى،

قد تشعر بالصدمة... "كيف يمكن أنْ ينتهي كلّ شيء؟"

ولكنْ سرعان ما تدرك أنّ هذه ليست النهاية، بل بداية جديدة مع اللّٰه...فتتذكّر تلك اللحظات الجميلة عندما كان قلبك يخشع للقرآن، وعندما كانت الصلاة تريح روحك، وعندما كان الدعاء يخرج من قلبك كالنّهر الصافي، تدرك أنّ هذه اللحظات لم تذهب سدى، بل هي رصيدك عند اللّٰه.

فالمؤمن الصالح يأتي بالفرح والسكينة، فهو يعلم أنّ اللّٰه راضٍ عنه، وأنّ الجنة تنتظره، وأمّا من أضاع عمره في المعاصي، فهنا يأتي التحذير والترهيب، فوجب أنْ يرى كيف ضيّع الفرص، وكيف أضاع سنوات ثمينة في المعاصي والغفلة، فالنفس التي جعلت "غداً" صنمها المعبود، واتّخذت من "سأتوب قريباً" شعارها، تقف الآن على حافّة الهاوية، ترى بأعينها كيف تتحوّل سنوات المماطلة إلى ندم أبديّ...

وفي اليوم الثاني...

يقضي المؤمن الصالح هذا اليوم في فرح وشكر... يراجع أعماله الصالحة، يتذكّر الأيتام الذين ساعدهم، والمساكين الذين أطعمهم، والوالدين اللذين أحسن إليهما، فيشعر بالسكينة والطمأنينة، ويزداد شوقه للقاء اللّٰه، أمّا المقصّر، فيبدأ رحلة الحساب الداخلي العسير... يراجع صفحات حياته فيجد كثيراً منها بيضاء خالية من العمل الصالح، وأخرى ملطّخة بالذنوب، فيتذكّر الفرص التي ضيّعها، والخير الذي تركه، وهنا يكتشف أنّ الندم له طعم مختلف عندما يقترن بنفاد الوقت... وهو ليس الندم الذي يأتي مع أمل "سأصحّح غداً"، بل النّدم المحرق الذي يأتي مع اليقين أنّه "لا يوجد غد"....

أمّا في اليوم الثالث...

فإنّ المؤمن الصالح يعيش يومه الأخير في سكينة عجيبة، فتراه يتوضأ ويصلّي بخشوع، يقرأ القرآن بتدبّر، يذكر اللّٰه بحب وشوق، ويشعر وي ْكأنّ اللّٰه يقول له:

"عبدي المؤمن، لقد أحسنت العمل، فاستعدّ للقاء كريم"....

أمّا المقصّرفيبدأ بالبحث عن الصّلة المقطوعة مع اللّٰه، يتوضأ بدموع التّوبة، يقف للصّلاة بقلب منكسر، ويدرك أنّ هذه الأيام الثلاثة لم تكن لعنة، بل كانت رحمة من اللّٰه الغفور الرحيم، وهنا تحدث المعجزة الحقيقيّة، فيكتشف أنّ الموت ليس نهاية بل بداية، وأنّ اللّٰه ما زال يفتح باب التوبة حتى اللحظة الأخيرة، فيشعر بسكينة غريبة تتسلّل إلى قلبه، وكأنّ اللّٰه يقول له:

"عبدي، لقد أمهلتك حتى اللحظة الأخيرة، فلا تضيّعها في الندم، بل استثمرها في التطهّر."

ففي هذه اللحظات الأخيرة، نتذكّر قول اللّٰه تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: 60]، وندرك أنّ كلّ ليلة كانت موتة صغيرة، وكلّ صباح كان بعثًا جديداً، وفرصة أخرى من اللّٰه لتصحيح المسار.

فنتعلّم الدرس الأعظم، بأنّ العبرة ليست في طول العمر، بل في عمق الإيمان، حيث اللحظة الواحدة المملوءة بالصدق مع اللّٰه تساوي سنوات من الغفلة، وحيث التوبة الحقيقية لا تحتاج إلى وقت طويل، بل تحتاج إلى قلب منكسر وروح صادقة.

فالسّؤال الجوهري: لماذا ننتظر؟ وماذا ننتظر ونحن نحيا الحياة مهما طالت في زمن معدود محدّد؟ فقد قال الشاعر أحمد شوقيّ - رحمه اللّٰه - :

دَقّاتُ قَلبِ المَرءِ قائِلَةٌ لَهُ ... إِنَّ الحَياةَ دَقائِقٌ وَثَواني

فَارفَع لِنَفسِكَ بَعدَ مَوتِكَ ذِكرَها ... فَالذِكرُ لِلإِنسانِ عُمرٌ ثاني

فإذا كان هذا هو حالنا في آخر ثلاثة أيام من حياتنا، فما الذي يمنعنا من أنْ نعيش كلّ يوم من أيّامنا وكأنّه آخر أيامنا؟ ما الذي يمنعنا من أنْ نستيقظ كلّ صباح ونقول: "اليوم قد يكون آخر أيامي، فلأجعله خير أيامي"؟

فالحقيقة التي نغفل عنها هي أنّ كلاً منّا يعيش أيّامه الثلاثة الأخيرة دون أنْ يدري، فالموت لا يأتي بإنذار مسبق، ولا يتفاوض مع أحد، فهو حقّ كتبه اللّٰه على جميع خلقه.

والنّفس المؤمنة الحقّة تعيش هذا الوعي في كلّ لحظة... فهي لا تنام حتى تراجع أعمال يومها، وتصلّي كلّ صلاة وكأنّها وداعها الأخير للدنيا، وتقرأ كلّ آية وكأنّها رسالة شخصيّة من اللّٰه، وتتصدّق وكأنّها تستثمر في البنك الأخرويّ الذي لا يفلس، فهذه النّفس لا تعرف التسويف في أمور الدين، فالصلاة لها موعد ثابت، والزكاة واجب مقدّس، والحجّ فريضة تؤدّى عند الاستطاعة، وبرّ الوالدين عبادة يوميّة، فهي تعيش بمبدأ:

"اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً."

فما أجمل أنْ نجعل من الموت معلّماً لا عدواً، معلماً يذكّرنا بقيمة الوقت فلا نضيّعه في التّفاهات، معلّماً يعلّمنا الأولويّات فنقدّم الباقي على الفاني، ومعلّماً يطهّر قلوبنا من الحقد والحسد والغيبة والنّميمة، ومعلّماً يحرّرنا من عبودية الدنيا...

فيا من تقرأ هذه الكلمات، قفْ لحظة وتأمل، واسأل نفسك:

- متى آخر مرة بكيت من خشية اللّٰه؟
- متى آخر مرة استغفرت بصدق وانكسار؟
- متى آخر مرة أحسست أنّ الصلاة ترفع روحك إلى السماء؟
- متى آخر مرة قرأت القرآن وأنت تشعر أنّ اللّٰه يكلّمك؟
- متى شعرت بأنّ وقتك قد استثمرته بالخير والسعي نحو طريق الهداية؟

أجب ذاتك، واستمع لها، فإمّا أنْ تكون إجاباتك تذكرة جميلة وتشجيعاً لك للاستمرار في الطريق المستقيم، وزيادة في الشوق للقاء اللّٰه...

وإمّا أنّك لن تجدإجابات واضحة لهذه الأسئلة، فاعلم آنذاك أنّ قلبك قد غلّفته الغفلة، وأنّ روحك تحتاج إلى صحوة عاجلة، ولكن لا تيأس، فباب التوبة مفتوح، ورحمة اللّٰه واسعة....

فخذ هذه الكلمات كإنذار أخير لكلّ نفس...

إنذار من القلب إلى القلب، ومن روح إلى روح، ومن أخ في الإنسانيّة والإيمان إلى أخيه...
إنذار يحمل في طيّاته الحبّ والخوف عليك، الحبّ لأننا نريد لك الخير في الدنيا والآخرة...

والخوف لأنّنا نعلم أنّ الفرصة قد لا تتكرّر...

فالنّفس المؤمنة حقاًّ هي التي تجعل من كلّ يوم فرصة للتوبة، ومن كلّ ليلة محطّة للمراجعة، ومن كلّ صباح بداية جديدة مع اللّه، وهي النّفس التي تعيش معلّقة بدينها، لا بأوهام الدنيا وزخارفها، معلّقة بالصلاة التي تصلها بربّها، وبالقرآن الذي يضيء طريقها، وبالذكر الذي يطهّر قلبها، وبالعمل الصالح الذي يزكّي نفسها، وباستثمار الوقت فيما يكسبها الأجر والثّواب، وبفهم حقيقة الدنيّا والآخرة، وإدراك معنى ما قاله الإمام عليّ بن أبي طالب:

يا من بدنياه أشتغل * * * قد غرّه طول الأمل
أولَم يزل في غفلة * * * حتّى دنا منه الأجل
الموت يأتي بغتة * * * والقبر صندوق العمل
اصبر على أهوالها * * * لا موت إلا بالأجل

فهلاّ كنت من هؤلاء؟ وهلاّ جعلت من هذه اللحظة نقطة تحول في حياتك؟

اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وأعنّا على التوبة النّصوح قبل أنْ يأتي يوم لا ينفع فيه ندم، واجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيّامنا يوم نلقاك غير خزايا ولا نادمين.
اللهمّ آمين يا رب العالمين.